(٢١) وليم جيمس : البراجماتية : اسم جديد لبعض الأساليب القديمة فى التفكير

بقلم : جاى ويلسون آلن

يبدأ الدارس الأوربى العظيم وناقد الأدب الأمريكى الأستاذ هاينريخ ستراومان بجامعة زيورخ تاريخه « للأدب الأمريكى فى القرن العشرين » بهذه الملاحظة :

« بالنسبة للمراقب الأجنبى لنمو الفكر الأمريكى سيظل دائماً من باب الألغاز أن الخاصية (الوحيدة) للسلوك الأمريكى والتى تعد بصفة عامة خاصية بارزة قد وجدت التفسير الفلسفى لها فى مرحلة متأخرة مثل هذه . وإذا كانت النظرة البراجماتية للحياة سائدة ومتبناة فى الولايات المتحدة بأسلوب أكثر انتشاراً وأكثر صدقاً منه فى أى مكان آخر فى العالم الغربى – فقد كان لها السيطرة الحازمة على أغلبية الأمريكيين لمدة طويلة قبل أن يحاول أحد وصفها بأسلوب الفكر المجرد . وربما كانت الخاصية الطبيعية لهذه النظرة السبب فى منع مناقشتها نظريًّا ، لكن بمجرد أن بدأ هذا فإنه لم يتوقف وأدى إلى عدد من أكثر الاتجاهات الحاسمة تأثيراً فى الفكر الحديث » [١] .

نشر وليم جيمس كتابه « البراجماتية » بعنوان فرعى « اسم جديد لبعض الأساليب القديمة فى التفكير » فى عام ١٩٠٧ برغم أنه ألقى محاضرة عن « المفاهيم الفلسفية والنتائج العملية » فى جامعة كاليفورنيا عام ١٨٩٨ ، وفى أثناء عامى ١٩٠٦ و١٩٠٧ استخدم فصولا من كتابه التالى فى إلقاء محاضرات فى بوسطن ونيويورك ، لكن الحركة الفلسفية التى أطلق عليها

اصطلاح البراجماتية تؤرخ عادة بنشر كتاب جيمس فى عام ١٩٠٧ على الرغم من أن جون ديوى كان يعمل فى تطوير نظرية مشابهة فى جامعة شيكاغو ، كما نشر أستاذ للفلسفة بجامعة أوكسفورد فى إنجلترا كتاباً فى عام ١٩٠٣ بعنوان « المذهب الإنسانى » الذى اعتبره هو وجيمس نفسه اسماً آخر للبراجماتية[٢] .

وقد قال جيمس فى الفصل الذى يدور حول معنى الكلمة إن :

« الاصطلاح مشتق من الكلمة اليونانية التى تعنى « الفعل أو العمل أو الوقوع » والتى اشتقت منها الكلمتان الإنجليزيتان « ممارسة عملية » و « عملى » ولقد أدخلها السيد تشارلز بيرس لأول مرة فى الفلسفة عام ١٨٧٨ : ففى مقالة بعنوان « كيف نجعل أفكارنا واضحة » فى « مجلة العلم الشعبية الشهرية » عدد يناير من ذلك العام ، وكان السيد بيرس – بعد أن أبرز لنا أن معتقداتنا فى حقيقتها قواعد للسلوك العملى – قال : إنه لكى نطور معنى أية فكرة فنحن لا نحتاج إلا إلى تحديد وتقرير أى سلوك مناسب يمكن أن ينتهج ، وهذا السلوك العملى هو دلالته (الوحيدة) بالنسبة لنا . ولعل الحقيقة الملموسة الكامنة فى أعماق كل الفوارق والاختلافات الفكرية – مهما كانت رصينة – ترجع إلى أن الفرق – مهما كان دقيقاً – لا يكمن فى أى شىء آخر سوى الاختلاف المحتمل فى الممارسة . عندئذ فلكى نحصل على وضوح كامل للرؤية فى أفكارنا عن أى موضوع – فإننا نحتاج فقط إلى تقدير أى النتائج المعقولة العملية التى يمكن أن يؤدى إليها هذا الموضوع ، وأى الأحاسيس التى نتوقعها منه ، وأى الردود المضادة التى يجب أن نستعد بها . ومفهومنا لهذه النتائج – سواء كانت عاجلة أو آجلة – يمكن أن يشكل بالنسبة لنا كل مفهومنا عن الموضوع ، طالما أن هذا المفهوم له دلالة إيجابية على أية حال » ص ٤٦ .

وقد ظن بيرس فيما بعد أن جيمس شوه نظريته وغير اصطلاحه إلى « البراجماتية الدقيقة » pragmaticism لكى يميزها من « البراجماتية » Pragmatism عنـــد جيمس . ويكفى القول بأنه فى حين أكد جون ديوى المنهج البراجماتى أو العملى فى حل المشكلات ، وفى حين قدم بيرس منهجاً لتجنب الغموض وعدم الدقة – كان جيمس منهمكاً فى إرساء « نظرية للحقيقة » وكما أكد جيمس كانت هذه النظرية فعلاً « منهجاً » لتقرير أى الأشياء – فى موقف محدد بالذات – يمكن أن تعتبر مفيدة ويمكن الاعتماد عليها بدرجة كافية فى سبيل الحصول على نتائج ناجحة ؟ فإذا نظرنا إليها من هذه الزاوية فسنجد أن جيمس يقول ببساطة : إن محك

التجربة هو الذى يمكنه فقط إثبات إمكان الاعتماد على هذه الافتراضات . هذا هو السبب فى إصراره على أنه « لا شىء جديد على الإطلاق فى المنهج البراجماتى ! فقد كان سقراط خبيراً به على حين استخدمه أرسطو بأسلوب منهجى وأضاف لوك وبيركلى وهيوم إضافات مهمة إلى الحقيقة مستخدمين إياه » ص ٥٠ . وقد أهدى كتابه إلى « ذكرى جون ستيوارت مل الذى تعلمت منه لأول مرة الانفتاح البراجماتى للعقل والذى يحب خيالى أن يصوره كزعيمنا لو كان حيًّا بين ظهرانينا اليوم ! » .

وعلى أية حال فقد أصر جيمس على أن هؤلاء الذين سبقوه إلى البراجماتية « استخدموها على هيئة شذرات ، فلم يتعدوا القيام بدور المقدمة فقط » ص . ٥٠

أصبح وليم جيمس فيلسوفاً بعد تدريب طويل فى مجال العلوم (الكيمياء والبيولوجيا والأنثروبولوجيا والتشريح وعلم النفس الفسيولوجى) ، وتلقى تدريباً كاملا فيما كان يسمى « بالمنهج العلمى » الذى يحتوى على تجميع لكل الحقائق الممكنة بعقل مفتوح تماماً ، ثم الملاحظة والتحليل الدقيق للحقائق ، وهى المرحلة التى تسبق الوصول النهائى إلى النتيجة المحتملة عن طريق الاستنباط والتى يتحتم اختبارها بالمزيد من الملاحظات والافتراضات.والإيمان بهذه الطريقة التجريبية كان الاعتقاد الوحيد الذى شارك فيه كل العلماء . وقد تحقق كل التقدم فى العلوم باستخدام هذا المنهج ؛ إذ من الواضح أنه أدى دوره على الوجه المطلوب . عندئذ أراد جيمس تطبيق هذا المنهج فى تقصى « كل الحقيقة » أو « الحقائق » كما كان يفضل استخدام هذا اللفظ ، وأكد أن محك التجربة هو الذى يستطيع فقط أن يفصل بين الحقيقة والزيف . واستخدم كلمة « العملى التنفيذى » بدلا من « الحقيقى » ؛ فإن الذى يعمل ويحل المشكلات ويثبت أنه أكثر عملية فى موقف ما – هو الحقيقى بالنسبة لنا على الرغم من كونه محتملا فقط فى هذا الموقف بالذات أو آخر شبيه له تماماً . ويجب علينا دائماً أن نأخذ حذرنا من أوجه الشبه الظاهرية أو المضللة !

إن هذا الجانب من النظرية ، الذى أثار أكبر قدر ممكن من الاعتراض ، والذى كان فى حقيقته رفضاً لكل الناس الذين أحبوا النظريات المجردة أكثر من الحقائق الملموسة – كان بمثابة احتقار جيمس للحقائق الكونية ! فقد اعتبر أفلاطون « الحقيقة » كشىء أبدى ، أما « الواقع » فشىء مؤقت ، وبناء عليه فهو شىء غير دائم ووهمى . وفى العالم الغربى اتشحت كلمة « الحقيقة » نفسها بأردية الألوهية لمدة طويلة ، والآن يتحدى جيمس هالتها المقدسة !

وفى كل كتاباته الفلسفية استمر جيمس فى التأكيد على أن معظم الافتراضات الميتافيزيقية – إن لم تكن كلها – لا يمكن أن تختبر صلاحيتها على الإطلاق بالبرهان الموضوعى سواء كان ذلك بأى طريقة ؛ خذ مثلا نظرية الحتمية : هل الإنسان له إرادة حرة أو أن كل أفعاله قد حتمتها الإرادة الإلهية أو القوى الطبيعية العمياء ؟ إننا لا يمكن أن نقرر أيهما الصحيح فعلا على الإطلاق ؟ لكن عندما يعتقد الفرد أن لديه على الأقل بعض التحكم فى مصيره – فإنه يستطيع التأثير فى النتائج العملية فى مجال حياته اليومية . وطالما أن هذا الافتراض أو هذا الإيمان الاستراتيجى مفيد فإن له قيمته العملية ، أو أنه فى نظر جيمس « الحقيقة » نفسها . إن الاختبار الوحيد لحقيقته يكمن فى درجة فائدته أو نفعه . وقد قال النقاد : إن هذه النظرة للحقيقة سيكلوجية وليست فلسفية . ربما يقدرون قيمتها الفلسفية لكنهم ينكرون إضافتها للحقيقة . وقال بعض : إن جيمس هجر ببساطة أو على الأقل مر مرور الكرام على الميتافزيقيات كلها . ولا شك فإنه قام بهذه المهمة إلى حد معين .

وعلى سبيل المثال فإن النظرية الرئيسة المفضلة عن فلاسفة الميتافيزيقا بطول قرون بأكملها كانت نظرية « المادة » : فى العصور الوسطى أكمل الفلاسفة الأكاديميون الفروق بين المظهر والجوهر ، وكما قال جيمس فإن هذا التفريق أصبح « كامناً فى بناء اللغة الإنسانية ذاته » وللتدليل على ذلك رصد قطعة من الطباشير : إن جوهرها يكمن فى البياض ، والقابلية للكسر وعدم القابلية للذوبان والتحلل فى الماء وهكذا . « لكن المؤلف لعناصر هذا الجوهر هو « الطباشير » فى نهاية الأمر : أى المظهر الذى يحتوى هذه العناصر » ص ٨٥ . لكن كل ما نستطيع معرفته بالتجربة عن قطعة الطباشير أنها تحتوى على هذه العناصر الجوهرية ، وهى التى نختبرها من خلال حواسنا والتى يمكن الاستفادة بها بأساليب عملية مثل استخدام قابليتها للكسر وطبيعتها الهشة فى الكتابة على السبورة . فنحن لا يمكننا أبدا اختبار « المادة » غير المرئية والتى هى فى حقيقتها بمثابة تجريد خالص لا يدركه سوى الإيمان به فقط .

وبالأسلوب نفسه يمكننا القول بأن المناخ العام هو الذى يحدد الطقس اليومى على الرغم من أنه ليس سوى المعدل الفعلى لعدد كبير جدًّا من الأيام ذات الأنواع المختلفة من الطقس ، وهى التى تمنحنا مفهوم المناخ . وربما يكون من الواضح أن « المناخ » مفهوم إحصائى بدلا من كونه مادة أوشكلا ، لكن جيمس يجادل لكى يثبت أن الأشياء التى تشغل الفراغ – مثل

قطعة الطباشير أو قطعة الخشب أى كتل « المادة » – ليس لها شكل يمكن اختباره أكثر من « المناخ » .

هنا يتفق جيمس مع بيركلى الذى يصف جيمس نقده « للمادة الفيزيقية » بأنه « براجماتى تماماً ». ودمغ لوك أيضاً بأنه براجماتى لنقده « للمادة الروحية » أو « الشكل الروحى » فعلى سبيل المثال نجد لوك فى معالجته « للدلالة الشخصية للإنسان سرعان ما يخضعها لقيمتها البراجماتية تحت ضوء التجربة . ويقول : إنها تعنى كثيراً من « الوعى » أو الحقيقة التى تجعلنا فى لحظة واحدة من الحياة نتذكر اللحظات الأخرى ، ونشعر بها كلها كأجزاء من كل ، وتنتمى إلى التاريخ الشخصى نفسه. وقد فسرت العقلانية الاستمرارية العملية فى حياتنا بأنها وحدة روحنا ومادتنا » ص . ٩٠ .

وطالما أن علم اللاهوت ينظر إلى السلوك الإنسانى على أنه شىء يمكن أن يكافأ أو يعاقب فى حياة مستقبلة سواء فى الجنة أو الجحيم فإن لوحدة روحنا ومادتنا استخداماً فى هذا الشأن ، لكن بالنسبة لكل الأغراض العملية هنا على الأرض وفى القرن العشرين فقد وجد جيمس أنها تنتمى إلى عالم التأملات المحضة وليس لها أى استخدام عملى . وبالطبع فإن « لوك لإيمانه بالحلول الوسط سمح بالاعتقاد فى الروح المادية الملموسة التى تكمن وراء وعينا ، لكن خليفته هيوم ومعظم علماء النفس التجريبيين بعده أنكروا وجود الروح ما عدا كونها اسماً لتجمعات متنوعة فى حياتنا الداخلية ، وعادوا إلى النزول إلى مجرى التجربة فى ميدانها ، ولم يمنحوها سوى قيمة ضئيلة فى الطريقة التى تتغير بها الأفكار وارتباطاتها الخاصة بعضها ببعض » ص ٩٢ .

وعلى الرغم من أن جيمس لا يقول هذا الكلام ، لأنه بالنسبة « للتجمعات المتنوعة فى حياتنا الداخلية » فقد بدأ علماء النفس بالفعل يستخدمون اصطلاح « النفس » بدلا من « الروح » وفى علم الكلام فإن « النفس » تعنى « الروح » لكن فى علم النفس التجريبى أصبحت تعنى شيئا مثل مركز التجمع للصفات الشخصية (أو الوعى بالذات) أكثر من نفس أو روح لا مادة لها على الإطلاق .

وبسبب رفض جيمس « لوحدة روحنا ومادتنا » كمفهوم مفيد ، اتهم بأنه مادى قح ! وعلى أية حال لم يكن ماديا ولا روحانيا بل كان تجريبيا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . هكذا تبنى فكر بيركلى بصفته مثاليا ضد المادة الملموسة بصفتها تجميعاً لخصائص الأشياء

المادية ، كما اتفق مع لوك عدو المثالية – على الرغم من أنه لم يكن ماديا بمعنى الكلمة – وذلك ضد المادة الروحية .

وقد اعتبر جيمس الجدل بين الماديين والروحانيين جدلا جماليا على نطاق واسع : فالروحانى يعتبر المادة مجرد شيء « ضخم ، خشن ، غبى ، طينى » والروح كشيء « نقى ، متسام ، نبيل » ص ٩٤ .

أما المادى فيقول : إن « قوانين الطبيعة المادية هى التى تسير الأشياء » ، وإن كل المعلومات عن الكون تشتمل على معرفة الحقائق بناء على أحوالها الفسيولوجية بصرف النظر عن احتمال أن الطبيعة موجودة فقط بالنسبة لعقولنا كما يؤمن المثاليون .

وعلى أية حال فإن عقولنا يجب أن تسجل نوعية هذه الطبيعة وأن تعتبرها قوة عاملة من خلال القوانين الصماء للفيزياء » ص . ٩٣ .

لم يكن جيمس متيقناً من أن هذه القوانين صماء ، لكن القضية كلها بدت له بلا جدوى على أية حال . إنه يتساءل ص ٩٦ : « ما الاختلاف العملى الذى يمكن أن تحدثه الآن بحيث تسير المادة أو الروح هذا العالم ؟ » وإذا لاحظنا العمليات ذات التأثير الأفضل فى مجال تجربتنا الفعلية فإننا نستطيع اكتشاف الكيفية التى نضاعف بها نجاحنا ، ونقلل بها من فشلنا فى تحقيق أهدافنا ! إن هذا هو كل ما يهم ، وهذا هو المنهج البراجماتى .

وقد قرر جيمس لمدة طويلة من قبل أن كل فلسفة فكر ذاتى إلى حد كبير على الرغم من أن معظم الفلاسفة خدعوا أنفسهم بالاعتقاد فى أن تفكيرهم موضوعى وغير شخصى بأسلوب صارم . ولا ينطبق هذا على الفلاسفة فحسب ، بل إن معظم البشر يختارون معتقداتهم لإرضاء ميولهم ومشاربهم . والتصنيفان الأساسان هما « ذوو العقل المرهف » و « ذوو العقل الصارم » . ويميل الصنف الأول إلى الأخذ بالفكر الروحانى المثالى بالمفهوم اليومى للاصطلاح ، فهو يفكر فى ضوء المبادئ العامة : « القوانين » ، والمعتقدات ، والأفكار المجردة التى تساير نفسيته ، فى حين يميل الصنف الآخر إلى الأخذ بالفكر المادى ، وبمنهج الشك ، ويتضاعف اهتمامه بالحقائق والمواقف الملموسة أكثر من التعميمات .

« وينظر ذوو العقل الصارم إلى ذوى العقل المرهف على أنهم قوم مسرفون فى العاطفية ، ويفتقرون إلى رجاحة العقل ، فى حين يشعر ذوو العقل المرهف بأن ذوى العقل الصارم يفتقدون رهافة الحس والإحساس السامى ، ويميلون إلى الوحشية » ص ١٣ .

من هذا التشخيص للصنفين يمكننا أن نفترض أن جيمس البراجماتى لابد أن يصنف نفسه تحت بند « ذوى العقول الصارمة » ؛ فالعقل بطبيعته يميل تجاه التفكير والسلوك العمليين ، لكن جيمس فى الواقع يجمع فى داخله شيئاً من كلا الصنفين : فعلى الرغم من أنه أعلى شأن الحقائق الواقعة فوق المفاهيم المجردة – فقد أراد هو أيضا التمسك ببعض المفاهيم المجردة ، ولم يعتبر كل المعتقدات الدينية أوهاما خادعة أو أشياء لا جدوى منها : « إن الإيمان الروحى فى كل صوره يتعامل هو وعالم « موعود » ، فى حين أن شمس المادية تغرب فى بحر من الإحباط وخيبة الأمل ! » وأنه من الأسهل بكثير أن نعيش فى عالم موعود عن الحياة فى خيبة أمل لا فكاك منها . » إننى شخصيا أومن بأن الدليل على وجود الله يكمن أساساً فى تجاربنا الشخصية الداخلية » ص . ١٠٩ .

إن ما عارضه جيمس كان محاولات إثبات وجود الله بالمنطق كالقول مثلا بأن النظام فى الطبيعة دليل على وجود خالق خير. قال جيمس :

« إن أول خطوة فى مثل هذه المناقشات كانت تهدف إلى إثبات أن النظام موجود . وكان قد تم تحليل الطبيعة وتفسيرها للحصول على نتائج من خلال تجميع وتوليف الأشياء المنفصلة : وعلى سبيل المثال فإن أعيننا تستمد مادتها من رحم الظلام الداخلى فى حين أن الضوء ينبع من الشمس ، لكن انظر كيف يناسب كل منهما الآخر ؟ إن الرؤية هى النظام أو الشكل النهائى الذى من أجله صمم الضوء والأعين كوسائل منفصلة لبلوغه .

وإذا وضعنا فى اعتبارنا كيف شعر أجدادنا بقوة هذا المنطق دون أن يطلقوا عليه أى اسم ، فإنه من الغريب أن ندرك عدم الاهتمام به إلى هذا الحد مثل انتصار النظرية الداروينية ؟ لقد فتح داروين عقولنا إلى تأثير الأحداث التى تقع بالصدفة وينتج عنها نتائج « مناسبة » إذا تأتى لها فقط الوقت لكى تضيف بعضها إلى بعض.وأظهر أن الفاقد الضخم فى الطبيعة فى بلوغ النتائج التى تجهض قبل الأوان يرجع إلى عدم ملاءمتها بعضها لبعض ؛ كما أكد أيضا أن عدد الموجودات التى يمكن توليفها ربما وقعت بين يدى مصمم شرير أكثر منه مصمماً خيراً . هنا كل شىء يعتمد على وجهة النظر فبالنسبة للحشرة التى تعيش تحت لحاء الشجر فإن الوجود المناسب للكيان العضوى للطائر الذى يعيش على مثل هذه الحشرة لابد أن يكون صادراً عن مصمم شيطانى ! » ص . ١١١ .

وتمكن مهاجمة كل الفروض الميتافيزيقية بالأسلوب نفسه وسواء قبلت أو رفضت فإن هذا

يعتمد على وجهة نظر الرائى ، والشيء الذى ربما يبحث عنه بلا وعى سواء كان ينظر إليه من وجهة نظر الطائر الذى يعيش على حشرة اللحاء أو الحشرة نفسها . هكذا الحال أيضاً مع التجريد العقلانى الأساس فى تاريخ الفكر الإنسانى ، إنها وحدة الكون وليست تعدده كما تفترضها كلمة الكون بالإنجليزية **uni-verse** وليست **multi-verse** يقول جيمس :

« إذا لم نراع الدقة فى كلامنا بصفة عامة فإنه من المحتمل القول بأن كل الأشياء تتلاقى وتتآلف بعضها وبعض بطريقة ما ، وإن الكون الواحد يوجد عمليًّا فى أشكال منفصلة أو متحدة هى التى تصنع منه كياناً مستمرًّا أو « متكاملاً ».وأى نوع من التأثير يساعد فى جعل العالم واحداً يمكن تتبع مداه من الخطوة الأولى إلى الخطوة (الثانية) الناتجة عنها . وربما نستطيع القول عندئذ بأن « العالم واحد » – ونقصد بهذا كل الاعتبارات المعنية التى يمكن أن تبلغ هذه الوحدة.لكن فى حين أنه بالتأكيد ليس واحداً فإنها لا يمكن أن تبلغ هذه الوحدة ، وليس هناك أى نوع من الارتباط يمكن ألا يفشل ، وبدلا من اختيار العوامل المؤدية إليها فإنك تختار العوامل التى تؤدى إلى عكس النتيجة تماماً .عندئذ تجد نفسك مقيداً عند خطوتك الأولى ، وعليك أن تسجل العالم ككيان متعدد تماماً من وجهة النظر الخاصة تلك . وإذا انصبت قدرتنا الفكرية على العلاقات المنفصلة كما على العلاقات المتصلة فإن الفلسفة ستكون عندئذ قد نجحت فى إعلاء مبدأ فقدان العالم لاتحاد جزئياته » ص ص ١٣٧ – ١٣٨ .

ومن ثم فإن :

« العالم واحد فقط من خلال تجربتنا التى توضح لنا وحدانيته . واحدٌ من الارتباطات المحددة المتعددة كما تبدو لنا ، لكنه ليس واحداً أيضا بالدرجة نفسها من الانفصالات المحددة المتعددة التى نقابلها . وهكذا فإن الوحدة والتعدد فى هذا العالم يتحققان فى ظل اعتبارات يمكن تحديد وتسمية كل منها على حدة . إنه ليس ذلك العالم النقى البسيط فى وحدته ، ولا ذلك العالم النقى البسيط فى تعدده . إن أساليبه المتعددة لكونه واحداً تؤدى إلى برامج كثيرة محددة للعمل العلمى اعتماداً على دقتها المؤكدة . هكذا يطرح السؤال البراجماتى نفسه : « ما الوحدة أو الواحدية كما يجب أن نعرفها ؟ وما الاختلاف العملى الذى سيتأتى عنها ؟ »

هذا السؤال يجنبنا ويوفر علينا الإثارة المحمومة التى تصدر عنها كمبدأ ينتمى إلى عالم السمو ويحملنا إلى الأمام مع تيار التجربة بفكر هادئ بارد . وبالطبع فإن التيار ربما يكشف لنا عن علاقة واتحاد أقوى بكثير مما نشك فيه الآن ، لكننا بناء على المبادئ البراجماتية غير مصرح لنا

بادعاء الواحدية أو الوحدانية المطلقة على أية صورة مقدما . ص . ص ١٤٨ – ١٤٩ .

إن عدم ادعاء « الوحدانية المطلقة » مقدماً هو سويداء قلب النظرية البراجماتية للحقيقة عند جيمس . ويرى العقلانيون « الحقيقة » باعتبارها ساكنة ، خاملة وغير متبدلة . وكما يلخص جيمس نظرته : « عندما تحصل على فكرتك الحقيقية عن أى شيء (وهذا ما يعتبره المؤمن بالمطلقات حقيقيًّا) ، فهناك نهاية للمادة . عندئذ فإنك تملك شيئاً عندما تعرفه ، وبذلك تكون قد حققت قدرك ككائن مفكر » لكن :

« البراجماتية – من ناحية أخرى – تلقى بالسؤال المعتاد فتقول : لنعترف بأن فكرة أو عقيدة ما حقيقية ، فما إذن الاختلاف الملموس الذى يمكن أن تحدثه فى الحياة الفعلية للمرء لكونها حقيقية ؟ كيف يمكن إخراج الحقيقة إلى حيز الواقع ؟ وما التجارب التى ستصبح مختلفة عن تلك التى سنحصل عليها إذا كانت هذه العقيدة مزيفة ؟ وباختصار : ما القيمة الفورية للحقيقة فى ظل الشروط التجريبية ؟

إنه فى اللحظة التى تطرح فيها البراجماتية هذا السؤال فإنها ترى الإجابة عنه : إن الأفكار الصحيحة هى تلك التى نستطيع هضمها ، وترسيخها ، وتأكيدها ، وتنويعها ، فى حين أن الأفكار المزيفة لا يمكن أن نفعل معها الشيء نفسه . هذا هو الاختلاف العملى بالنسبة لنا عندما نتيقن صحة الأفكار ، ومن ثم فإن هذا هو معنى الحقيقة ، وهو كل ما نعرفه عن الحقيقة .

هذه هى الرسالة التى آليت على نفسى الدفاع عنها . إن حقيقة أية فكرة ليست خاصية ساكنة كامنة فيها . إن الحقيقة فى ذاتها فكرة . إنها تصير حقيقية إذ إن الأحداث تثبت حقيقتها ، وتنوعها فى الواقع حدث ، عملية متفاعلة ، فالعملية هى التنوع ذاته ، وهذا التنوع يتميز بذات واحدة ؛ كما أن صلاحية الفكرة هى القدرة على إثبات ذلك عمليًّا » ص ص ٢٠٠ – ٢٠١ .

والأفكار التى تختبر بهذا الأسلوب ويثبت عدم إمكان الاعتماد عليها عمليا تصبح « أدوات غير ذات قيمة للفعل » ص ٢٠٢ (وهذه تشبه تماماً نظرية الحقيقة التنفيذية عند جون ديوى) .

وقيمة مثل هذه الأدوات الفكرية كأفكار قابلة للتنفيذ لابد أن توضع موضع الاختبار فى كل يوم من أيام حياتنا . وكما يقول جيمس : « نحن نعيش فى عالم الوقائع التى يمكن أن تكون

مفيدة بلا حدود أو مؤذية بالقدر نفسه أيضاً . إنها الأفكار التى توحى إلينا باختيار أو توقع الحقيق منها فى كل هذا المجال الأولى للتعدد ، فى حين أن متابعة مثل هذه الأفكار بمثابة واجب إنسانى أساس » ص ص ٢٠٢ – ٢٠٣ .

ولكى نقرب لأذهاننا معنى نظريته للحقيقة كما تتطور من خلال المحاولة والخطأ ، فإن جيمس غالبا ما استخدم كلمات ذات دلالات غير شائعة وغير مفضلة مثل « القيمة الفورية » للحقيقة . وتكلم أيضاً عن « المنفعة أو الفائدة العملية » التى توحى بالحلول الوسط التى تتميز بالكسل والجبن والجشع . وعدم الرغبة فى خوض المعارك من أجل المبادئ الأخلاقية وما شابه ذلك : « وعلى سبيل الإيجاز الشديد فإن الحقيق هو النافع والمفيد فقط فى منهج تفكيرنا ، تماماً مثل « الصحيح » الذى يعد النافع والمفيد فى منهج سلوكنا والنافع هنا هو غالباً ما يناسب أى ظرف ، وهو نافع فى نهاية الأمر وعلى كل الوجوه بطبيعة الحال . إن كل ما ينتج من نفع عن التجربة الراهنة كلها لا يساير بالضرورة كل التجارب الأخرى بالقدر نفسه من الإشباع . وكما نعرف فإن للتجربة أساليبها فى فرض نفسها وجعلنا نصحح أفكارنا الأثيرة الراهنة » ص ٢٢٢ .

هكذا فإن كل ما يعنيه جيمس « بالمنفعة أو الفائدة العملية » هو أنه لا يوجد شىء كنا قد اعتقدنا حقيقته فى وقت ما بناء على مبررات كافية ، وهذا الشىء بالضرورة سيستمر حقيقيًّا فى المواقف الأخرى والأوقات الأخرى :

« علينا أن نعيش اليوم على أساس من الحقيقة التى نستطيع الحصول عليها اليوم ، وأن نكون على استعداد غداً لاعتبارها شيئاً مزيفاً . وكان الفلك البطلمى ، والفراغ الإقليدى ، والمنطق الأرسطى ، والميتافيزيقا الأكاديمية – نافعة ومفيدة لقرون ، لكن التجربة الإنسانية طغت على هذه الحدود ، والآن أصبحنا نعتبر هذه الأشياء حقيقية نسبيًّا ، أو حقيقية فى حدود التجربة . أما إذا أخذناها « على الإطلاق » فهى زائفة ؛ لأننا نعلم أن هذه الحدود عرضية وربما يكون المنظرون السابقون قد تخطوها تماماً مثلما فعل المفكرون الحاليون ! » ص ٢٢٢

وقد لاحظ مفكر دانماركى أننا نعيش قدما إلى الأمام ، لكن إدراكنا يسير إلى الخلف . والبراجماتية تذكرنا أن أفكارنا العملية ليست (الوحيدة) المعرضة لكى تصبح غير حقيقية فى المستقبل ، بل أفكارنا كلها بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، مثل : نظرية بطليموس التى تنادى بأن الشمس تدور حول الأرض وبأن كوكبنا الصغير هو محور الكون .

فى فصل عن « البراجماتية والإنسانية » يبدى جيمس إلى أى مدى كبير يتفق هو مع ف .

س . س شيللر فيلسوف المذهب الإنسانى فى بريطانيا ؟ يقدم هذا الاصطلاح تأكيداً مفيداً لقناعة جيمس بأن كل الحقائق من صنع الإنسان ، ومن هنا كان تحيزها النابع من طبيعتها المحدودة الناقصة التى تحمل فى طياتها كل الصفات البشرية . وفى قاعات محاكمنا تتغير تفسيرات قوانيننا بتغير البيئة الاجتماعية وفى الواقع فإن أية لغة مازالت متداولة – أية لغة حية – تتغير فى الشكل والمعنى والنطق . « وقد طبق السيد شيللر هذا التشابه المنطق (بين القوانين واللغة) على المعتقدات ، واقتراح اصطلاح « المذهب الإنسانى » للنظرية التى تقول بأن حقائقنا – إلى حد غير مؤكد – من صنع الإنسان أيضاً . وتزيد الدوافع الإنسانية من حدة كل القضايا التى نطرحها ، فى حين يكمن الرضا أو القناعة فى كل إجاباتنا ، ومن هنا فإن كل أفكارنا الجاهزة لها زاوية إنسانية » ص ٢٤٢ .

وبالنسبة لكل من جيمس وشيللر فإن هذه النظرية تنطوى أيضاً على مفهوم فلسفى للواقع كشىء تعددى : فالواقع الوحيد الذى نستطيع أن نجربه يصل إلينا عبر التغير المستمر لإحساساتنا . فهى تأتى ببساطة إلينا ، ولا نملك من التحكم فى وصولها إلينا سوى قدرٍ ضئيلٍ ، لكننا نملك – كما يقول جيمس – « حرية معينة فى التعامل معها ، لكن لاحظ أننا نمارسها ونؤكدها فى النتائج التى تساير ميولنا واهتماماتنا ، وطبقاً لتأكيدنا الذى نركزه هنا وهناك فإن تراكيب الحقيقة التى تنتج عن هذا مختلفة تمام الاختلاف . وباختصار فإننا نتسلم كتلة الرخام ، لكننا نقوم بنحت التمثال بأنفسنا » ص ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

وهكذا « فنحن نضيف إلى كل من الفاعل والمفعول جزءاً من الواقع . وفى الواقع فإن العالم يصبح فعلا قابلا للصياغة وفى انتظار اللمسات النهائية لأيدينا ومثل مملكة السماء فإنه يعانى من العنف الإنسانى بإرادته . والإنسان هو السبب الكامن وراء كل هذه الحقائق المتعلقة بالعالم ، ولعل الفارق الضخم بين العقلانى والبراجماتى يكمن فى النهاية فى أن الواقع جاهز مسبقاً وكامل إلى الأبد بالنسبة للعقلانية ، أما بالنسبة للبراجماتية فإن الواقع مازال جارى الصنع ، ومازالت بعض ملامحه فى انتظار المستقبل لتكتمل : فمن ناحية يبدو الكون آمناً تماماً ، ومن ناحية أخرى مازال يمارس مغامراته » ص ٢٥٧ .

أطلق جيمس على هذا اصطلاح « البراجماتية » أو « الفلسفة التى لا تنطوى على أى خداع . . » [٣] والجملة تمثل وتدل على هذا المعنى . فهى تمثله بأسلوبها الأدبى غير الفنى ، الحاد ، وغير الرسمى ؛ وتدل عليه بإبرازها رغبته فى العيش بدون زيف أو ادعاء . إنها تتقمص

روح الشجاعة ، والنظرة الكلية ، وروح الدعابة والشباب لكى تعيش فى عالم ليس فيه شىء مؤكد سوى التغير والمسايرة البراجماتية له ، لكن أسلوب جيمس النثرى الذى يومض ويتفجر بجدة وانبهار صوره الحية النابضة وتعبيراته التى تنوء بالمعانى – يعبر عن الإثارة التى يحدثها العيش فى عالم يؤكد جيمس « أنه قابل فعلا للصياغة وفى انتظار اللمسات النهائية لأيدينا » .

وبالرغم من إيمان جيمس بتعددية هذا الكون وبالحقائق التى من صنع الإنسان – فإنه يعترف فى فصله الأخير بأنه ربما يكون هناك واقع غير معروف للحواس الإنسانية ليس فقط من المحتمل ، بل من الممكن أيضاً . وبناء على ذلك فإنه لا يقف ضد الفروض التى تنادى بوجود الله أو العالم الروحى ، وإذا منحت هذه الفروض البشر الراحة والشجاعة – فإنه لا يعترض عليها كفروض ، لكنه يحذر من أنه لا يوجد فرض روحى واحد يمكن أن يكون نافعاً لكل الناس من الناحية البراجماتية . فهو يعترف بقوله : « إننى أومن بعمق بأن تجربتنا الإنسانية هى أسمى أشكال التجربة التى فى الكون » .

وعلى أية حال فإن هذا بصراحة نوع من الإيمان المبالغ فيه والذى يعتنق لإشباع حاجة داخلية . وكل ما تصر عليه البراجماتية أنه لا يوجد لأحد الحق فى تحويل أى إيمان مبالغ فيه إلى قوالب صماء وقواعد غير قابلة للتغيير . دعه يستخدمها ، لكن دع كل إنسان لكى يبقى حرًّا فى اختيار اعتقاداته الخاصة به . وبسبب هذا التسامح اتهم جيمس بتقديس التفكير الذى ينبع من رغبات الإنسان وتطلعاته وخلطه « بالحقيقة » ، لكنه بالطبع كان يهدف إلى حتمية إخضاع أى إيمان مبالغ فيه للاختبارات البراجماتية التى طالب بتطبيقها نفسها على كل الحقائق .

ولم تعد النظرية البراجماتية للحقيقة تثير جدلا ساخناً ؛ ولم يعد كل إنسان يتقبلها ؛ لكن مفهوم الحقيقة كشىء نسبى ، وأن الفرض المطلق كشىء لابد أن يخضع لامتحان التجربة – كل هذا لم يعد على الأقل مذهلا ؛ كما كان منذ نصف قرن مضى ، لكن النظرية مازالت لها من الدلالة ما كان لها عند بداية هذا القرن .

وبالرغم من الحقيقة التى تؤكد شهرة الأمريكيين العالمية كقوم براجماتيين – فإنهم مازالوا يظهرون ميلا لبناء القوالب العقلانية التى يصبون فيها القضايا التى هى أشمل فى الدين والحكومة مثل السياسة الخارجية أو الاقتصاد أكثر من تبنى الفروض التى يمكن اختبارها وصياغتها وإعادة تشكيلها لكى تناسب الواقع السياسى والاجتماعى والاقتصادى المتغير .

لكن الأمريكيين لا ينفردون بهذه الطريقة الموروثة للتفكير والسلوك . فإذا كانوا يميلون إلى

اعتبار الشيوعية شرًّا مطلقاً ، ويجدون صعوبة فى التفريق بين الأشكال المتنوعة للاشتراكية – فإن المنادين « بالحقائق » الماركسية يفعلون الشيء نفسه . . وفى الواقع فإن معظم الدول مازالت تفسر الرأسمالية الأمريكية فى ضوء واقعها الذى ساد فى القرن التاسع عشر . ويمكن أن يحقق تطبيق نظرة جيمس العملية إلى الحقيقة فهماً وتسامحاً أفضل بين الأمم ، وذلك عندما يجعل من الممكن لها أن تتقبل الاختلافات فيما بينها ، وأن تلطف من التوترات التى تنشأ بينها . وربما لم يكن هناك زمن فى التاريخ الإنسانى من قبل مثل الآن فى حاجتنا الملحة إلى « البراجماتية » ذلك « الاسم الجديد الذى قدمه وليم جيمس لبعض الأساليب القديمة فى التفكير » .

ملاحظات

١ – هاينريخ ستراومان : « تاريخ الأدب الأمريكى فى القرن العشرين » (الطبعة الثالثة المنقحة ، نيويورك ، ١٩٦٥) ص ١ .

٢ – وليم جيمس : « البراجماتية : اسم جديد لبعض الأساليب القديمة فى التفكير : محاضرات عامة فى الفلسفة » (نيويورك ، ١٩٠٧) . ومن خلال الفصل كله سجلت أرقام الصفحات بين قوسين بعد كل مقتطف .

٣ – من وليم جيمس إلى ثيودور فلاورنوى ، ٢٦ مارس ١٩٠٧ ، « خطابات وليم جيمس وثيودور فلاورنوى » إعداد روبرت س . لى كلير (ماديسون ، ويسكونسن ، ١٩٦٦) ص ١٨٧ .